مقدمة

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات الأدبية نشرت عبر الثلاثين عامًا الماضية. وهى دراسات متنوعة على مستوى الشكل والمضمون، بل والمنهج، وإن كان ينتظمها خيط واحد، فجميعها يتناول قضايا فكرية متنوعة، مثل الأدب والصراع العربى الإسرائيلى، والأدب والسياسة، والأدب والتحديث. كما أنها جميعًا تلتزم بعدم إطلاق أى تعميمات نقدية دون قراءة متمعنة فى النصوص، ودون تجريد النموذج الإدراكى الكامن فى كل جزئيات النص وتفاصيله، ثم تحويله إلى نموذج تحليلى يُستخدم فى قراءة هذا النص فى كليته وتكامله. وقد استخدمت آليات عديدة لتحقيق هذا الهدف (التحليل الفلسفى - دراسة الخلفية التاريخية - التحليل الطبقى - التحليل البنيوى) ولكن من أهمها قراءة النص من خلال الصور المجازية التى ترد فيه.

وقد حاولت قدر استطاعتى أن أصنف هذه الدراسات على أساس الموضوع الأساسى المتواتر الكامن (بالإنجليزية: ثيم Theme) الذى هو قريب الصلة بمفهوم النموذج. ويتناول الفصلان الأول والثانى من هذا الكتاب («الأدب والصراع العربى الإسرائيلى» و«الأدب والسياسة») هذا الموضوع الخلافى، أى علاقة الأدب بحقل غير أدبى، وكيف يمكن الانتقال من حقل إلى آخر. وقد حاولت فى الدراسة الأولى «هل الصهيونية حركة رومانسية؟» أن أقدم وصفًا نظريًّا للمنهج الذى تبنيته فى هذه الدراسة (وفى معظم - وربما كل - الدراسات الأخرى التى يضمها هذا الكتاب). وبعد هذا قمت بتطبيق هذا المنهج على حقلين مختلفين تمام الاختلاف، بل وقد يبدوان للوهلة الأولى وكأنهما يقفان على طرفى النقيض الواحد من الآخر. (ويمكن للقارئ الذى يود الاستزادة بخصوص المنهج التفسيرى والتحليلى الذى أستخدمه أن يعود لكتاب **دراسات فى الشعر**، الجزء المعنون «فى المنهج»).

ويتناول الفصل الثالث («الأدب والتحديث») كيفية استجابة بعض الأدباء فى الشرق والغرب لقضية تحديث المجتمع. وتدور دراسات الفصل الرابع («فى الوجدان الأمريكى») حول بعض الإشكاليات الفلسفية التى يواجهها الأدباء الأمريكيون. ويتناول الفصل الخامس والأخير («فى النقد الأدبى») بعض الأعمال والنظريات النقدية.

والدراسات التى يضمها هذا الكتاب (وكل دراساتى الأخرى) تنطلق من الإيمان بأن ثمة فارقا جوهريا كيفيًّا بين عالم الإنسان المركب، المحفوف بالأسرار، وعالم الطبيعة (والأشياء والمادة)، وأن الحيز الإنسانى مختلف عن الحيز الطبيعى المادى، مستقل عنه، وأن الإنسان يوجد فى الطبيعة وعالم المادة المتغيرة، ولكنه ليس جزءًا عضويًّا منها؛ لأن فيه من الخصائص ما يجعله قادرا على تجاوزها وتجاوز قوانينها الحتمية، وصولا إلى رحابة الإنسانية وتركيبيتها (وهذا هو مصدر ثنائية الإنسان والطبيعة التى تسم كل الأنساق المعرفية الهيومانية الإنسانية Humanistic). وهى ثنائية تفاعلية، بمعنى أنه على الرغم من أن الإنسان منفصل عن الطبيعة إلا أنه يتفاعل معها ويستمد منها أشكالاً مختلفة من المعرفة ويقوم بإعمارها (فهو حسب التصور الإسلامى مستخلف فيها من الله سبحانه وتعالى). ويعبر هذا عن نفسه فى رؤيتى النقدية، إذ أننى أركز على النقطة التى يتقاطع فيها العام مع الخاص، والمضمون مع الشكل، والفكر مع الأدب، أى النقطة التى يتفاعل فيها أطراف ثنائية الواقع المادى (الموضوعى) فى مقابل الواقع الأدبى (الذاتى). والفكر الذى يرى أسبقية الطبيعة / المادة على الإنسان، وأن الإنسان جزء لا يتجزأ منها؛ هو فكر مادى يرد الإنسان إلى الطبيعة ويستوعبه فيها ويختزله إلى قوانينها، فيختفى الحيز الإنسانى ويبتلعه الحيز المادى، وبدلا من ثنائية الإنسانى والطبيعى تظهر الواحدية الطبيعية/ المادية.

ومن الأفكار التحليلية الأساسية الأخرى فى هذه الدراسة فكرة الثنائية وفكرة وحدة الوجود. والثنائية هى الإيمان بوجود أكثر من جوهر فى العالم. والثنائية الأساسية (فى النظم التوحيدية) هى ثنائية الخالق (المنزه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ) والمخلوق. وهى ثنائية فضفاضة تكاملية؛ إذ أن الإله مفارق للعالم، إلا أنه لم يهجره ولم يتركه وشأنه. وينتج عن هذه الثنائية الأولية ظهور ثنائيات تكاملية عدة من أهمها ثنائية الإنسان والطبيعة، التى تفترض انفصال الإنسان عن الطبيعة وأسبقيته عليها واستحالة رده إليها وتفسيره فى إطارها، لأن الإله خلقه وكرمه واستخلفه فى الأرض، ووضعه فى مركزها.

أما وحدة الوجود - أو الحلولية - فهى المذهب القائل بأن كل ما فى الكون (الإله والإنسان، والطبيعة) مكوّن من جوهر واحد، مكتفٍ بذاته يحتوى على مركزه وركيزته الأساسية داخله. ومن ثم ينكر هذا المذهب وجود الحيز الإنسانى المستقل، كما ينكر إمكانية التجاوز. وفى إطار وحدة الوجود يمكن رد كل الظواهر - مهما بلغ تنوعها وعدم تجانسها - إلى مبدأ واحد كامن فى العالم، كما أن الجزء يذوب فى الكل، ويتم تسوية الإنسان بالكائنات الطبيعية وتُلغَى كل

الثنائيات، وتسود وحدة الوجود التى تتسم بالواحدية الصارمة التى تنزع القداسة عن كل الأشياء، وتصبح كل الأمور نسبية.

والرؤية التى تنطلق منها هذه الدراسات تذهب إلى أن التصور الحلولى المادى الواحدى للإنسان يختزله إلى عنصر واحد أو اثنين، بينما ترى الرؤية الإنسانية الكائن البشرى باعتباره ظاهرة مركبة تحتوى على عناصر وأبعاد عدة متداخلة، لا يمكن رصدها فى كليتها، وإنما يمكن رصد أو استكشاف بعض أبعادها وحسب. وهذه التركيبية الإنسانية لا تختلف كثيرا عن تركيبية النص الأدبى. ولذا فالقراءة النقدية للنصوص فى هذه الدراسات تتبع منهجًا يحترم حدود النص الجمالية، ولا تهمل سياقه الاجتماعى والحضارى والشخصي.

ويضم الكتاب مجموعة من المقالات التى نشرت بالإنجليزية («الليل والظلام هما الأفضل دائما» - «أنساق أخلاقية» - «المأزق الترانسندنتالى» - «ثنائية الإنسان والطبيعة» - «اللجوء إلى وولدن») والتى قام بترجمتها صديقى الدكتور شعبان مكاوى، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة حلوان (رحمه الله)، ماعدا الأولى والتى قام بترجمتها الدكتور محمد الصاوى أستاذ الترجمة بجامعة المنصورة. والأصل الإنجليزى لهذه الدراسات (والدراسة المعنونة «مواعظ قصصية عن الضرورة والحرية») توجد على موقعى الإلكترونى www.elmessiri.com.

وقد قام صديقى الدكتور محمد هشام، المدرس بجامعة حلوان بقراءة هذا الكتاب قبل نشره، واقترح علىّ تعديلات كثيرة أخذت بمعظمها. كما قام الأستاذ أحمد عبد الرحيم (كلية دار العلوم) بتحرير الدراسات، وقامت الأستاذة أمانى عبد الخالق بإعداد المخطوطة للنشر. وقد قام مساعداى الأستاذة دينا رمضان (المعيدة بجامعة عين شمس) والأستاذ محمد الأشول بالتعاون معى عبر كل مراحل تأليف الكتاب وإعداده للنشر. فلهم جميعًا منى الشكر وعند الله الجزاء.

دمنهور - القاهرة

يناير ٢٠٠٧